حول الحروب الصليبيّة

الأنبا يوحنّا قُلتَه*

١ – مقدّمة

أعوذ بالله من أن أكتب هذه السطور دفاعًا عن الحروب الصليبيّة، أو عن أيّة حروب دينيّة، فإيماني هو دعوة للحبّ، حتّى للعدوّ إن كان لي أعداء، والمسيحيّة لا تأمر بالحروب، ولا تحبّذ حلّ القضايا المحتدّة بالسلاح، ولا تبارك أبدًا العنف والقهر والظلم، وهي أمور طالما كانت ثمارًا مرّةً لكلّ الحروب، كما أنّ المسيحيّة ترفض مقاومة المعتدي عنفًا إلّا إذا كان الأمر واجبًا وطنيًّا أو دفاعًا عن قِيَم روحيّة أو حفاظًا على العرض، ولا مفرّ منه، كما حدّد ذلك القدّيس أوغسطينس[1].

كلماتي هذه محاولة لقراءة تاريخ تلك الفترة التي امتدّت أكثر من مائتي سنة (بدأت الحملة الأولى في ١٥ آب/أغسطس ١٠٩٦م وجاءت الحملة السابعة والأخيرة في العام ١٢٤٢م = ٦٤٧هـ). إنّه تاريخ تدفّق الحملات الصليبيّة على الشرق وعلى الغرب، فلم تكن بلدان شرق أوروبّا

(*) هو المطران المعاون لبطريرك الأقباط الكاثوليك. دكتور في الآداب. له كتب ومقالات عديدة روحيّة وأدبيّة وسياسيّة نُشِرت في مصر. والمقال هنا مداخلة في أثناء «طاولة مستديرة» أحيتها الإذاعة المصريّة بصيغة السؤال والجواب.

(١) مدينة الله، ١٩: ١٣. راجع أيضًا ما ورد في كتاب التعليم المسيحيّ للكنيسة الكاثوليكيّة، ترجمة البولسيّين، بيروت وجونيه، ١٩٩٩، الأرقام ٢٢٥٨ إلى ٢٢٦٧، و٢٣٠٢ إلى ٢٣٣٠.

بمنأى عن خطر هذه الحملات، ولم تسلم جزر البحر المتوسط من سطوتها وعنفها.

وينبغي ألّا نحكم على كنيسة اليوم كما نحكم على كنيسة الأمس، ولا على أخلاقيّة اليوم كما على أخلاقيّة الأمس، ونتذكّر أنّنا نتكلّم على عصر بدت الكنيسة فيه دولة لها نفوذها وتأثيرها، ونظلمها ظلمًا شديدًا إن بحثنا عن أسرار تلك الحروب بمنظار روحيّ صرف.

إنّ الحروب الصليبيّة موضوع لا تكفّ الكتب شرقًا وغربًا عن الخوض فيه، كما لا تملّ الصحف العربيّة على امتداد الوطن العربيّ والإسلاميّ من ترديد «إثم هذه الحروب»: إنّها الخطيئة المسيحيّة في نظرها، وإنّها العار الذي لا يُمّحى، وتشتدّ النبرة أحيانًا فتُكال التهم للمسيحيّة، وتخفت أحيانًا فتلمحنا تلميحات صريحة أو خجولة... وقد تُسقَط عمدًا أو عن سهو، الحروب الدينيّة الأخرى، علمًا أنّه ليس من حربٍ أقلّ شرًّا من حرب، وليس من غازٍ، أو فاتح، أرحم من آخر، وليس هناك مستعمر قديمًا ومستعمر حديثًا في قلبه صفح.

أوّلًا - أسباب الحروب الصليبيّة

يذكر لنا التاريخ أنّ من أسباب هذه الحروب الصليبيّة واحدًا اقتصاديًا وواحدًا سياسيًا. أمّا السبب الاقتصاديّ فكما يقول سيّد عليّ الحريري: إنّه حصل قحط ببلاد أوروبّا عدّة سنوات مترادفة، نتج عنه فيها مجاعة عظيمة وكثرت اللصوص وصارت مدنهم وقراهم لا تتحمّلهم، لذلك بادروا نحو أراضي المشرق الخصبة[٢]. وأزعم أنّ السبب السياسيّ هو رغبة البابا في توحيد بلدان أوروبّا نحو هدف جذّاب ليكفّوا عن قتال بعضهم بعضًا، والسعي لاستعادة النفوذ المسيحيّ في المناطق التي سيطر عليها العرب.

---

(٢) سيّد عليّ الحريري: الأخبار السنيّة في الحروب الصليبيّة، مطبعة النيل، القاهرة، ص ١١.

وهنا لا بدّ من إبداء بعض الملاحظات المهمّة:

أ- ينبغي في دراسة تاريخ الحروب الصليبيّة، أن ننأى بالإسلام دينًا، وبالمسيحيّة دينًا، عن دوافع وأسباب هذه الحروب، فهي لم تكن موجّهة ضدّ الإسلام وإن حاربت بلادَ المسلمين، بل هي محاولة للخروج من أزمات اقتصاديّة ومجاعات، وحرب لاستلاب الغنائم والثروة واتّخذت من الصليب راية، تمامًا كما حدث في كثير من الفتوحات الإسلاميّة المتأخّرة حيث قامت غزوات فرديّة أو جماعيّة محدودة، ولٰكنّها تمضي دومًا باسم الله وباسم الدين[٣].

ب- يقول الباحث المسلم محمّد سيّد كيلاني «.. الواقع أنّ الحروب الصليبيّة كان سببها الرئيسيّ تخليص بيت المقدس من أيدي المسلمين، فقد كان زوّار قبر المسيح يلاقون كثيرًا من أنواع الذلّ والإهانة ويقابلون صعوبات جمّة ومتاعب عظيمة وربّما هلك منهم عدد غير قليل والسعيد منهم مَن يرجع إلى بلاده سالمًا، ولا عجب في ذٰلك فقد كانت الأحوال في بلاد الشام في أقصى درجات الفوضى وتقسّم البلادَ الشاميّة عدّة أمراء كلّ منهم في حروب دائمة مع مَن يجاوره، وكانت أنباء اضطهاد زوّار بيت المقدس تصل تباعًا إلى أوروبّا مع الحجّاج العائدين من المشرق..»[٤].

فليس من باب المصادفة أن يلتحف غروب القرن الحادي عشر الميلاديّ بسحب الحروب الصليبيّة ونُذُرِها، بين الشرق والغرب. فالحروب التي اتّخذت الدينَ إطارًا لها ونقطة انطلاق لحملاتها ليست جديدة على هذا القرن أو على القرون التي سبقته، إذ إنّ العامل الدينيّ هو العامل المحرّك لوجدان العصور الوسطى سواء عند المسلمين في حروبهم على البلدان التي فتحوها، أو عند الشعوب

---

(٣) إبراهيم عليّ طرخان: المسلمون في أوروبّا في العصور الوسطى، القاهرة، ١٩٦٦، ص ٢٢٩.

(٤) محمّد سيّد كيلاني: الحروب الصليبيّة وأثرها في الأدب العربيّ في مصر والشام، ص ٩.

المسيحيّة في الغرب التي قادت حملات صليبيّة كردٌّ فعل مضادّ. إنّها حروب سياسيّة واقتصاديّة تتّخذ من الدين نقطة انطلاق، ولعلّ ما فعله معاوية بن أبي سفيان الخليفة الأمويّ مثالٌ على ذلك، فقد فتح قبرص العام ٢٨هـ وانتزعها من بيزنطية وصالح أهلها على دفع الجزية، ولم يرغمهم على الإسلام ولم يترك عندهم حامية، فلقد كان الهدف سياسيًّا حتّى لا تصبح الجزيرة معبرًا لجيوش بيزنطية إلى دمشق، واقتصاديًّا إذ إنّه اكتفى بجزية قدرها سبعة آلاف دينار في كلّ عام(٥).

ج- يمكن القول إنّ الوضع السياسيّ في منتصف القرن الثامن الميلاديّ (النصف الأوّل من القرن الثاني الهجريّ) بعد انتصار العبّاسيّين قد تبلور في وجود ثلاث قوى عالميّة وهي:

- الإمبراطوريّة الإسلاميّة (العبّاسيّون في بغداد والأمويّون في الأندلس والصراع بينهم على أشدّه).
- الإمبراطوريّة المسيحيّة الشرقيّة البيزنطيّة وعاصمتها القسطنطينيّة.
- دولة الفرنجة - الكارولنجيّين (اللاتين) والصراع بين بيزنطية وروما لا يهدأ، والمعارك بين حكّام الإمارات الأوروبيّة لا تتوقّف.

وحتّى نتعلّم من التاريخ فينبغي الانتباه إلى أنّ المصالح الشخصيّة غالبًا ما تطغى على التصوّرات الدينيّة أو حتّى على العقائد الإيمانيّة. فلقد قام عهد واتّفاق بين العبّاسيّين وبين الفرنجة، وكلاهما يشدّ أزر الآخر، فالعبّاسيّون يطاردون الأمويّين والفرنجة تطارد بيزنطية.. وعلى الجانب الآخر قام عهد واتّفاق بين الأمويّين في الأندلس وبين بيزنطية في القسطنطينيّة لصدّ أعداء الطرفين...

أمّا عن علاقة العبّاسيّين بالفرنجة، فقد جسّدتها الروابط الحميمة بين هارون الرشيد أمير المؤمنين في بغداد، وبين شارلمان إمبراطور اللاتين.

---

(٥) إبراهيم عليّ طرخان: المسلمون...، ص ٢٣٤.

دعاه الرشيد إلى زيارة القدس، وسلّمه، في قول بعض الروايات، مفاتيح المدينة وحماية الأماكن المقدّسة، ممّا يشرح تاريخيّة سيادة الكنيسة الكاثوليكيّة على غاليّة المناطق الدينيّة في الأماكن المقدّسة، ولم ينسَ شارلمان فضل الرشيد في شدّ أزره ضدّ الإمبراطوريّة المسيحيّة البيزنطيّة، وتبادَلَ الرجلان الهدايا والسفراء..

«.. بات كلّ من العبّاسيّين في بغداد والأمويّين في قرطبة (إسبانيا) يتربّصون الدوائر كلٌّ بصاحبه، ولم يرَ أيّهما حرجًا في التحالف مع المسيحيّين بعضهما ضدّ بعض، ومن ثمّ قامت علاقات بين بلاطَي قرطبة وبيزنطية من ناحية وبلاطَي بغداد والفرنجة من ناحية أخرى، ولم يمنع الأمر أن يحاول الأمويّون أن يقيموا سلامًا مع الفرنجة، وسعى أشهر قائد مسلم وهو عبد الرحمن الداخل إلى أن يوقّع معاهدة سلام مع شارلمان وأن يطلب إليه المصاهرة، وتمّت المعاهدة ولم تتمّ المصاهرة»[٦].

كان الواقع في القرن الحادي عشر مهّد تمامًا لقيام الحروب الصليبيّة، بغضّ النظر عن أهدافها الظاهريّة الدينيّة ودعوتها لإنقاذ القدس والحجّاج إليها. فالشرق ممزّق، ضعيف، والغرب ممزّق، ضعيف، وفي خضمّ هذه الأمواج المتلاطمة شرقًا وغربًا وانهيار نُظُم الحكم، وضياع الأراضي المقدّسة، ونفوذ رجال الدين وقدسيّة البابا في الغرب، وأسر المؤمنين في الشرق، تأتي رسالة البابا أربان الثاني لتؤكّد دورها في توحيد صفوف الغرب وانتهاز فرصةٍ بدت سانحة لاستعادة المناطق المسيحيّة التي استولى عليها العرب. فقد تسلّم هذا البابا رئاسة الكنيسة الكاثوليكيّة بعد وفاة البابا ڤيكتور الثالث وتُوّج في ٨ أيّار/ مايو سنة ١٠٨٨ ولم يكن عمره قد تجاوز الخمسين، ورأى أنّ حال المسيحيّين وصل إلى قمّة المأساة في صميم البلدان المسيحيّة، فالمدن تُهدَم والكنائس تُدمَّر والأديرة تُنهب، وتؤخذ الراهبات سبايا ويقتل الرهبان.

---

(٦) المرجع السابق، ص ٢٠٧.

أضف عاملًا آخر أسهم في إذكاء روح الحرب على الشرق، وهو عامل الفرسان المرتزقة الذين كانوا يبحثون لهم عن معارك من أجل الغنائم والأسلاب والجواري والنفوذ، بل قامت عدّة غزوات سريعة سواء من الشرق أو من الغرب هدفها الحصول على المغنم[٧]. وراح أمراء الأراضي المقدّسة يعيثون فيها فسادًا، والسلاجقة يهدّدون بيزنطية، والشعب الإسبانيّ يساق ضحايا مؤامرات المغامرين، والطوائف وصعاليك البحر يشنّون الغارات على الشواطئ المسيحيّة، والبابا في ذلك الزمان هو السند الوحيد لشعوب المسيحيّين، وفي يده وحده سلطة جمع شتات أوروبّا، وهو المسؤول أمام التاريخ وأمام ضميره على الحفاظ عن التراث المسيحيّ وعقيدة الإيمان.

وجاء في خطاب البابا في ٢ تشرين الثاني/ نوفمبر ١٠٩٥ في مدينة كلير مونت الفرنسيّة:

«أيّها المسيحيّون، إنّ تلك الأراضي المقدّسة التي تقدّست بحضور شخص المخلّص فيها، المغارة التي ولد فيها، والجبل الذي عليه تألّم ومات من أجلنا، والقبر الذي دفن فيه، تلك الأماكن أضحت ميراثًا لغرباء وفقدت بهاءها الأصيل. كلّها خربت وانطفأ نورها الساطع وتحوّل إلى ظلام حالك، وهي تستحقّ الندب الشديد والبكاء، والمدينة المقدّسة أورشليم لم يعد لله فيها معبد، والمشرق العظيم مهد إيماننا ونبعه المقدّس، لم يعد إلّا مشهدَ افتخار لمَن استولى عليه. ساد ظلام وفقر مهين على مدن آسيا (الصغرى) وسقطت إنطاكية وأفسس ونيقية في يد الغرباء، وذراعهم القويّة تهدّد بالاستيلاء على كلّ ممالك الغرب..»[٨].

ولا بدّ أن نتخيّل حال العالم الإسلاميّ، والعالم المسيحيّ، طوال مائتي سنة من المعارك والدمار والسبي، وكيف كانت تمضي الحياة في

(٧) المرجع السابق، ص ٢٠٧.
(٨) المرجع السابق، ص ٧٣.

أثناء الحروب الدينيّة البشعة وما ارتكب فيها من وحشيّة يندى لها جبين المؤمن الحقيقيّ أسلمًا كان أم مسيحيًّا.

سبع حملات، بدأت الأولى منها في ١٥ آب/أغسطس العام ١٠٩٦م بقيادة الراهب بطرس الناسك، الذي اشتكى فيما بعد من فرسان الحملة وأسماهم «اللصوص». فقد اعملوا التدمير والنهب في المدن المسيحيّة قبل وصولهم إلى شواطئ الشرق العربيّ. ضمّت هٰذه الحملة ثلاثة جيوش من ألمانيا وفرنسا وإيطاليا، وعند وصولها القدس أُعلن الألمانيّ جُودافري ملكًا على القدس، وملكًا على جثث سبعين ألفًا قتلوا في المدينة من المسلمين والمسيحيّين الشرقيّين ومن الغزاة.

وجاءت الحملة السابعة العام ١٢٤٢م = ٦٤٧هـ بقيادة القدّيس لويس التاسع، وحدث في دمياط ما روته كتب التاريخ من أسر وفدية، وانتهت تلك الحروب بإخفاق الحملات الصليبيّة إذ هزمها الجيش المصريّ بقيادة الأشرف ملك مصر سنة ١٢٨٥م = ٦٩٠هـ. وقد انتهت الصراعات بين أوروبّا والعرب في الأندلس بسقوط غرناطة عاصمتهم في يد الأوروبّيّين سنة ١٤٩٢م = ٨٩٧هـ، وكأنّ الشرق والغرب قد وافقا على هذا الواقع. وعاد الشرق إلى حضن أبنائه، ولكنّ الحروب لا تنتهي بانتهاء سفك الدماء، فقد زرعت مخلّفاتها في وجدان الشعوب آلامًا وشكوكًا لم تزل حتّى اليوم تطوف بخيال البشر في كلّ مكان.

ثانيًا - بعض الثمار المرّة التي خلّفتها الحروب الدينيّة والصليبيّة في العصور الوسطى

أ - زُرعت بذور العداء المستحكم بين الشرق الإسلاميّ والغرب المسيحيّ، وظلّ هذا العداء قرونًا طويلة، فلم تكفّ الغزوات على الشواطئ العربيّة لجلب الغنائم والأسرى والرقيق... ولم يقف المسلمون مكتوفي الأيدي بل انتقم الترك فيما بعد حتّى سقطت القسطنطينيّة في أيديهم، ووجد الغرب بلدانه مرّة أخرى تحت وحمة السيف التركيّ الذي

توغّل في شعوب شرق أوروبّا ودقّ أبواب النمسا وهزّ كرسيّ روما بعد أن أسقط كرسيّ بيزنطية.

أمّا في البلدان العربيّة، فقد خلّف الصليبيّون وراءهم ميراثًا كلّه أشواك وسموم في وجدان الشعوب العربيّة، فانطوت كنائس الشرق على ذاتها، وبدأت في الضمور والذوبان في المجتمع الإسلاميّ. ولكن ينبغي أن تقال كلمة حقّ، فالشعوب العربيّة الإسلاميّة لم تتعامل مع أبنائها من العرب المسيحيّين على أنّهم أعداء بل تركت لهم مساحة من حرّيّة العقيدة والعبادة وقد أدرك الوجدان المسلم العربيّ الانتماء الأصيل والحقيقيّ الذي يربط مسلمي الشرق ومسيحيّيه، وظلّت الأماكن المقدّسة تحت سيادة المسلمين، ملتقى الحجيج بغير عسف أو قسوة.

ب - سيطرت الأساطير والخرافات والشعوذة، ونشأ تراث أدبيّ وفقهيّ عربيّ بعيد كلّ البعد عن أصول المسيحيّة وعن أصول الإسلام. فقد ظهر إبّان الحروب الصليبيّة فقهاء على غير علم يدعون إلى الانتقام من المسيحيّين، كما ظهر في أوروبّا أدعياء يشحنون النفوس للانتقام من المسلمين...

هرب كثير من المسلمين إلى مكّة يتّخذون من الحرم ديرًا يباشرون فيه نوعًا من الرهبنة ابتدعوها، وكثر المتسوّلون والكسالى، وتفرّغ الكتّاب للردّ على النصارى، والشعراء لهجيهم والتنديد بهم.

كلّ هذه المصائب التي تراكمت على الناس والتي سبّبتها هذه الحروب ولّدت عند الشعب في بلاد الشام ومصر وفلسطين روح الحزن والاستسلام، وانتشر التصوّف الزائف، وبخاصّة بين الجنود الأكراد والترك، والتجأ الناس إلى الخرافات والأساطير والأحلام يرون فيها الأنبياء والرسل، وظهرت أسطورة «قراقوش» القاسي الجبّار تتبنّى السخريّة وتروّح عن نفوس الناس، وانتشر الدجّالون والنصّابون وكثر المحتالون والمشعوذون وراجت فنون السحر وأقبل الناس على الأحجبة والتمائم.. وشُغل الناس بالحديث عن الجنّة ونسائها وبخاصّة الشاعر ابن

قيّم الجوزيّة الذي أسرف في وصف حوريّات الجنّة، وظهر فقهاء مثل تقيّ الدين ابن تيميّة الذي شنّها حربًا على النصارى، وكثر استعمال كلمة الكفر، والكافرين، ولا يزال ابن تيميّة هو المصدر الأساسيّ لحركات التكفير والهجرة والإرهاب في العالم الإسلاميّ. ولقد وضع الأستاذ محمّد سيّد كيلاني في كتابه الحروب الصليبيّة كلّ ما يمكن أن نحتاج إلى معرفته عن أحوال هذا العصر.

هل انتهت مأساة الإنسانيّة التي نسجت خيوطَها الحزينة حروبُ الفرنجة، طوال قرنين من الزمن، بعد أن زرعت شوكًا سامًّا من العداء والكراهية؟ لا، فالجفاء ظلّ قائمًا والصراع العسكريّ لم يتوقّف.

ج - إنّ مسيرة البشر التاريخيّة في كثير من أحوالها تبدو كأفعال وحركات تخلق ردود فعل وحركات مضادّة. لقد خلقت الحروب الصليبيّة حروبًا مناهضةً لها موازية في مراحلها وحجمها، فالدعوة للمسيحيّة في الغرب كانت تقابلها دعوة مضادّة من المسلمين للجهاد في الشرق، كما أدّت هذه الحروب إلى عداء تلقائيّ، ولم تتوقّف الحروب. فبعد أن استراح المسلمون من التهديد الغربيّ، بدا غزو منظّم للولايات المسيحيّة، وامتدّ الصراع إلى داخل أوروبّا حتّى استطاع العثمانيّون الاستيلاء على القسطنطينيّة العام ١٤٥٢ م، وحاول الإمبراطور البيزنطيّ أن ينقذ المدينة ومنها مملكته وأعلن الوحدة بين الكنيستين الشرقيّة (البيزنطيّة) والغربيّة معترفًا بأولويّة بابا روما بعد انفصال بينهما دام قرونًا. ومع ذلك، فلا بدّ، لندرك ملامح نفسيّة مسيحيّي ذلك العصر، من أن نتذكّر عبارة وردت على لسان أحد الرافضين لهذه الوحدة المسيحيّة، وهي: «من الأفضل بقاء حكم العمامة التركيّ في القسطنطينيّة على تاج الكنيسة اللاتينيّة»[9]. وفي الحقيقة لقد تابع العثمانيّون توغّلهم في أوروبّا حتّى وصلوا أمام أسوار ڤيينّا (العام ١٥٢٩ م) حيث توقّف زحفهم، ثمّ هُزموا في معركة ليبانتّو

---

(٩) العلاقات الإسلاميّة المسيحيّة، بقلم مجموعة من المؤلّفين، بيروت، ١٩٩٤، ص ١٣٨.

البحريّة (١٥٧١ م)، وهذه الهزيمة التي لحقت بالأتراك أنهت توسّع العثمانيّين في أوروبّا وحدّدت نهاية مناهضة الصليبيّة.

وكأنّ قوّة خفيّة تحرّك المسيرة الإنسانيّة بدون أن يدري البشر. فلقد حسم التاريخ أمره، وتسلّم العثمانيّون أمر العالم الإسلاميّ، فغرق هذا العالم في غفوة طويلة عميقة امتدّت قرونًا، في حين سلّم التاريخُ الغربَ حكمَ اكتشاف العوالم الجديدة، ففتح القارّات واخترق أسرار العلوم، ومضى شوطًا بعيدًا حتّى بدا واضحًا أنّه امتلك ناصية التقدّم في العلوم التطبيعيّة وفي الفلسفة، نوُلد عصر جديد ازدحمت إبّانه في العقل الغربيّ الرؤى والأحلام البنّاءة. ولمّا أطلّ القرن التاسع عشر عاد معه أهل الغرب يعمرون الشرق العربيّ ولكن بعد أن أسقط الغرب شعار الدين المسيحيّ وتسلّح بالعلم والقوّة.

ثالثًا - بعض الآثار في الغرب

لقد صُدمت أوروبّا صدمة عنيفة من جرّاء إخفاق الحروب الصليبيّة وعودة أحفاد الصليبيّين إلى ديارهم، وذوبان مَن بقي منهم في المجتمعات الشرقيّة العربيّة. فلم تستطع تلك الحملات المتتالية أن تحرّر بيت المقدّس من أيدي العرب، ولم تنجح في لمّ شمل المسيحيّين الشرقيّين أو إقامة جسر من الحوار الدينيّ بين الشرق والغرب، كما أنّ هذا الإخفاق دفع الكنيسة إلى البحث مجدّدًا عن جذور الإيمان والعودة إلى ينابيع الحياة الروحيّة، وظَهَر قدّيسون عظام أقاموا رهبانيّات بقصد تجديد كلّ أنماط الحياة المسيحيّة، والعودة إلى النسك والنقاء وإلى القِيَم الإنجيليّة الأصيلة.

ولقد تساءل الكثيرون من أبناء المسيحيّة: تُرى لماذا لم يَنْصُر الله جيوشه لتخليص مقام مهده، وأرض آلامه، وقبر قيامته؟ وكأنّ الربّ في حاجة إلى جيوش ليحقّق خلاص العالم أو لنشر رسالة الإيمان، وكأنّ الله ينبغي أن يكون في خدمة جماعات مسلّحة تتذرّع بالدين، وتنشر الرعب،

والفوضى، وتسلب جميع حقوق الآمنين، وتسلك سلوك الوحوش الضارية. أترى الله تبارك وتعالى يحابي المؤمنين اسمًا لا فعلًا وحياةً، المتمسّحين في الدين كذبًا ورياءً، أو جهلًا وضلالًا، أم أنّ الله القدّوس، النور، الحبّ، في عون دعاة السلام، زارعي الحبّ، بناة الأمن والطمأنينة!

إنّ الدين والتديّن لا يعصمان عن الهزيمة العسكريّة، ولا يمنعان الكوارث أو الآلام، فالله له حكمته وقوانينه وإرادته الإلهيّة السامية التي لا ندركها بعقولنا المحدودة، وليس كلّ مَن يقول «يا ربّ، يا ربّ» يدخل ملكوت السموات. وليس عند الله محاباة. والتقرّب إلى الله القدّوس له درب واحد، أن يتقدّس الإنسان في جهاد روحيّ متّصل. والدين إن لم يكن عقيدة راسخة، وحياة مُعاشة، وحركةً إلى الأفضل، وأخلاقًا نبيلة ممارسة، لا قيمة له، ولا فاعليّة، فقد اشترط الكتاب المقدّس على المؤمن أن يكون بارًّا حتّى يحيا: «البارّ بالإيمان يحيا»، لأنّ الإيمان بدون ممارسة إيمان ميّت أو قُلْ أقرب إلى الأسطورة.

لقد عاش المسيحيّون القادمون في حملاتهم الصليبيّة مائتي سنة على أرض الشرق العربيّ وقد ظلّله الإسلام وبسط فيه نفوذه وشرائعه. أقاموا المستوطنات كما نسمّيها بلغة عصرنا، أو الإمارات بلغة ذاك العصر، عصر الحروب والتديّن. أكلوا من طعام العرب وشربوا من مائهم، تشبّهوا بهم، كما تشبّه العرب بهم، وأضحت هذه الإماوات ملتقى الغرب المسيحيّ بعاداته وتقاليده وطقوسه، والشرق الإسلاميّ بعاداته وتقاليده وطقوسه، ولا شكّ أنّ كلا الطرفين أثّر في الطرف الآخر تأثيرًا عميقًا بامتداد قرنين من الزمان، بين الحرب والسلام، بين التجارة والمصاهرة أحيانًا، بين تعايش سلميّ على أرض الواقع وما تفرضه سنّة الحياة اليوميّة...

ولا أشكّ لحظةً في أنّ الغرب المسيحيّ حاول أن يكتشف الإسلامَ الدينَ الجديد، وما يحمله من مفاهيم جديدة له، والشرائع الإلهيّة

والدنيويّة، كما لا أشكّ لحظة أنّ المسلمين تأثّروا كثيرًا بنسك بعض الرهبان الأبرار وقداستهم، فزيارة القدّيس فرنسيس الأسّيزيّ للسلطان الكامل بدمياط (١١٨٢-١٢٢٦) تركت آثارًا عميقة وكشفت للمسلمين أنّ هناك مسيحيّين غير صليبيّين، بالرغم من أنّ الحملات الصليبيّة لم تنقطع بل اتّصلت دفاعًا وهجومًا بين الغرب وبين الأتراك حتّى بداية القرن السابع عشر. ولعلّ آخر محاولة لإنقاذ بيت المقدس كانت بين عامَي ١٦٠٧ و١٦٠٨ حين نزل فرديناند الأوّل ملك توسكانا إلى جزيرة قبرص وأخفقت تلك المحاولة التي ختمت أحلام أوروبّا المسيحيّة في تخليص الأراضي المقدّسة بعد أن استطاع الأتراك أن يثأروا للمسلمين كما سبق وأشرنا إليه.

وأعتقد أنّ الإسلام الذي واجهه مسيحيّو الغرب طرح أسئلة خطيرة وجادّة في فكرهم وفي فلسفتهم بل وفي شؤون حياتهم الاجتماعيّة، فهو الدين الذي طرق أبواب أوروبّا في إلحاح متّصل حتّى سقطت العاصمة الثانية وبعض مدن أوروبّا بين أيدي المسلمين. لم يكن غزوًا كسابق عهدهم بغزوات أهل الشمال، أو التتار، بل كان اقتحامًا دينيًّا قبل كلّ شيء، وظلّ يطوّق حدود أوروبّا في الجنوب وفَرَض سيادته على بعض جزر البحر المتوسّط وإسبانيا وزحف في محاولات مستميتة لفتح فرنسا ووصل إلى بوردو، وقام بعدها بمحاولات لفتح سويسرا. هذا الدين الآتي من قلب الصحراء في شبه الجزيرة العربيّة نجح، في نصف قرن أو أقلّ، أن يحوّل المشرق والمغرب كلّه إلى إمبراطوريّة إسلاميّة عربيّة. ظلّ هذا الدين مجهولًا لا ترى أوروبّا في أتباعه إلّا برابرةً يغزون ويفتحون البلاد عنوة ويستولون على الغنائم والكنوز والجواري. إنّها الصورة التي طُبعت في ذهن الغرب المسيحيّ، وقد شهد مأساة الانفصال بينه وبين الشرق المسيحيّ، ثمّ شهد كيف استكان العالم المسيحيّ الشرقيّ للحكّام الجدد. بعض المؤرّخين رأوا في الإسلام جلّادًا للحضارة الهلّينيّة وبعضهم الآخر رأى فيه عقابًا من الله على انقسام الكنائس وصراعها، وآخرون قالوا بأنّه عقاب على فساد حكّام بيزنطية أو هو تأديب للشرق المسيحيّ المتمرّد على الكنيسة الأمّ في روما. لم يتبيّن المؤرّخون إلّا بعد ذلك بزمن طويل، أنّ

الإسلام دين له كلّ مقوّمات الدين وهو يحمل في طيّاته نظامًا للحياة والمجتمع، وحضارة ستعيش موازية للحضارة المسيحيّة ومنافسة لها.

الخاتمة

وفد كثيرون من الباحثين من أهل الغرب إلى البلاد العربيّة والإسلاميّة منقّبين، دارسين، مستكشفين السرّ وراء هذا الإعصار الدينيّ الذي يُدعى «الإسلام»، وظلّ التساؤل كما هو، وبقيت الحيرة أمام الإسلام والمسلمين تشغل فكر الغرب.

رأوا أنّ الإنسان العربيّ المسلم، لا يختلف في كثير أو قليل عن الإنسان العربيّ المسيحيّ، أو عن المسيحيّ الغربيّ، غير أنّ المسيحيّ العربيّ تمسّك بعقيدته وإيمانه وطقومه وقَبِل الإسلام دولة وحكمًا ونظامًا. ورأوا أنّ الإنسان العربيّ أو الشرقيّ، مسيحيًّا أكان أم مسلمًا، لا يقلّ عن المسيحيّ الغربيّ قوّة وذكاء وتمسّكًا بعقيدته وإيمانه، واكتشف الغرب المسيحيّ أنّ الإسلام وحّد شعوبه أمام حملاتهم، ورأى كيف يصلّي المسلمون وكيف يصومون ويحجّون، كيف يعيشون في مجتمع له تقاليده وأصوله، وأنّهم يعبدون الله الحيّ القيّوم، وليسوا عبّاد الأصنام ولا من البرابرة.

غَرُب القرن العشرون، وطلع فجر القرن الجديد وقد اتّصل العالم وأشبه مدينةً ضخمة، فلم تعد دولة تخلو من المسلمين ولم تعد دولة تخلو من المسيحيّين ومن أصحاب الديانات الأخرى، وفُرض على البشر واقع التعايش والتعدّديّة والحوار والسلام. وسيظلّ التاريخ حركة الأقوياء بالروح لا يرحم الجاهل، وستظهر الحقيقة ساطعة لتقول للبشر إنّ الصراع ليس صراع أديان أو قِيَم روحيّة، ليس حربًا بين الإسلام وبين المسيحيّة، ولكنّ الصراع الحقيقيّ هو صراع السلطة والمال واللذّات. فبعد كلّ هذه الحروب المدمّرة لا زالت المسيحيّة ساطعة متوهّجة، ولا زال الإسلام ساطعًا متوهّجًا، وستكون الغلبة - لا شكّ في ذلك - لمَن حمل إلى الإنسان المحبّة والرحمة والعدل والأخوّة، فالأقوياء في حركة التاريخ

ليسوا مَن يحملون السلاح، كما ادّعى مكيافيللي أنّ النبيّ الذي لم يحمل سلاحًا قد هزم، بل النصر هو لمَن يحملون رسالة الروح والقِيَم.

بعض المراجع

يضاف إلى ما ورد ذكره في أثناء البحث، العناوين التالية:

- عبدالله خورشيد البرّيّ: **القبائل العربيّة في مصر في القرون الثلاثة الأولى للهجرة**، الهيئة المصريّة العامّة للكتاب، القاهرة، ١٩٩٢.
- د. جاك تامر: **أقباط ومسلمون منذ الفتح العربيّ إلى عام ١٩٢٢**، القاهرة، ١٩٥١.
- أليكس جورافسكي (ترجمة د. خلف محمّد الجراد): **الإسلام والمسيحيّة**، «عالم المعرفة»، رقم ٢١٥، القاهرة.
- د. قاسم عبده قاسم: **ماهيّة الحروب الصليبيّة**، «عالم المعرفة»، رقم ١٤٩، القاهرة.